

العقاد .. شاعر

بقلم عبد الكريم غلاب

الا اذا استند على طبيعة فنية خلاقة ، فهو يقول مثلا : « ان المزية التي لا غنى عنها والتي لا يكون الشاعر شاعرا الا بنصيب منها هي مزية واحدة ، او هي مزية نستطيع ان نسميها باسم واحد وتلك هي الطبيعة الفنية . . . فالطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بينة للاحاساس بجوانب الحياة المختلفة . . . ليست جوانب الحياة علميا لا حد لها في العدد ولا في الصفة ؟ ثم ليست انواع التيقت لتلك الجوانب اشتاتا واخلاطا لا تجتمع في حصر حاصر ؟ ان الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءا من حياته ايا كانت هذه الحياة ، من الكبر او الصغر ، ومن الثروة او الفاقة ، ومن الانفة او الشذوذ . وتمام هذه الطبيعة ان تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا لا ينفصل فيه الانسان الحي من الانسان الناظم ، وان يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه ، يخفى فيها ذكر الاماكن والازمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة ، مما تتألف منه حياة الانسان (1) . هذه الطبيعة الفنية هي التي تحكمت في اراء العقاد في الشعر . فكان على ضوئها يقيم الشعر فيسمو عنده الى مراتب العظمة او ينزل الى درجة الاسفاف ، وكان على ضوئها يمارس قول الشعر فيترجم لحياته الباطنية بخالجاتها وهاجساتها ، بمشاعرها نحو الله والطبيعة والكون والانسان ، ولذلك لا غرابة اذا وجدنا شعر العقاد يتناول كل شيء في الوجود لان مشاعره الرحبة اتسعت لكل شيء في الوجود . ولا غرابة اذا نقل الشعر من مضمونه التقليدي في الوصف السطحي لما تراه العين ، الى مضمونه العميق في تحليل ما تحس به النفس وما يعتمل في الحياة الباطنية ، ولا غرابة اذا كان ديوانه الاول كما وصفه صديقه المرحوم المازني : « بحر بلا انتهاء ، موج فوق موج ، ودفاع بعد دفاع ، ورغوة من ورائها رغوة ، وحركة في اثر حركة ، واواذي مصطفقة ، ورياح مصطفقة ، ومد وجزر ، وضوضاء كانما انطلقت شياطين الارض تعوي ، وظلام يصد العين عن النظر ، وصفاء شفاف يغري بالخوض والسبح ، وسحب ترق وتكثف وتتفرق وتتجمع وتهضب ثم تطلع ، وامساء محلولة عادية ، واصباح مشرقة زاهية ، وصخور نائمة ورمال بليلة ، وسفائن ماخرة او

لعل الذين عاشوا مع انتاج العقاد في العقد الخامس والعقد السادس من هذا القرن لا يكادون يذكرون انه انتج الشعر ، وانتجه بغزارة ، ولعل الذين عاشوا مع انتاج العقاد في العقد الثاني والثالث من هذا القرن يعرفونه شاعرا بمقدار ما يعرفونه كاتباً ، او يعرفونه شاعرا اكثر منه كاتباً . ولكن الذين عاشوا مع انتاج العقاد الفكري والادبي في كتبه النثرية . وراوا اتساع الافق ورحابة المعرفة لديه ، قد يستحيلون الا يكون شاعرا - ولو لم يعرفوا دواوينه - لان حظ الشعاعية في ابحانه وانتاجاته لا يقل عن حظ الفكر والبحث والتحقيق ، وما ظنك بباحث كتب عن كثير من اعظم الشعراء والفنانين العرب وغير العرب ، كتب عن ابن الرومي والمنتبي والمعري وابي تمام والشريف الرضي وعمر بن ابي ربيعة ، كما كتب عن جوته وشكسبير وغيرهم من شعراء الانجليز والفرنسيين والامسان .

وقد شغل العقاد في شبابه بالشعر كما شغل بالدراسات الادبية التي تتصل بالادب والشعر اكثر مما شغل بالدراسات الفلسفية والفكرية ، ونصب نفسه لتصحيح الاوضاع والموازن في عالم الشعر ، وخاض من اجل ذلك معاركه المشهورة ضد مدرسة شوقي ، فانصف الكثيرين وجار على الكثيرين ، ولم يكن وهو يصحح الاوضاع ليتخلى عن المعركة ، وانما كان مدفوعا في معركته بالممارسة ، او مدفوعا من اجل الممارسة ، اي انه كان يصحح الاوضاع لنفسه ، ويضع الموازين القسط للشعر ينظمه فيتخلى فيه عما يعيبه على غيره من شعراء مصر في الربع الاول من هذا القرن ، ويتبع الاسلوب السذي يرتضيه لنفسه ولهم ، فكان انتاجه الشعري وفق مذهب خطئه وجعل منه دستور الشعر ، مستفيدا - ان لم نقل مقلدا - من شعراء العرب وغير العرب ممن احتلوا مكانتهم الفنية في نفسه .

ونستطيع ان نقول ان العقاد نجح في تخطيط المذهب ، وفي خلق مدرسة جديدة في الشعر سار على نهجها هو وزميله شكري المازني ، وخلفت اثرها في كثير من اجيال الشعراء . واعظم اثر كان - وما يزال - لهما هو اخراج الشعر من عموده التقليدي في المضمون لا في الشكل ، ذلك العمود الذي دعمه في مصر على الاخص البارودي ثم شوقي واسماعيل صبري . ومدرسة العقاد تعتمد على ان الشعر لا يكون شاعرا

(1) مقدمة كتاب « ابن الرومي حياته من شعره » .

مفرقة محطمة ، ورعود مجلجلة ، واغاريد واهازيح هافية ، وافاق تصفو وتغيم ، وانجم زهر تخفق على اللج ، ودر واصداف وحصى وحجارة ، واعشاب نابته ، واحيساء متصارعة ، وصور يختفي فيها الزائل في ثنايا الثابت ، وتجتمع فيها الجنة والنار ، والحاشية الرقيقة والجوف الفائر ، ويلتقي عندها الحاضر والماضي ، والسكون والحركة الدائمة ، والغناء والخلود واللحظات والاباد ، والبحر والبر ، والشرق والغرب والليل والنهار والشمس والقمر ، وكل نفس ترى هذا البحر الزاخر بشتى الصور والحالات ، ولكن ليس كل واحد بقادر على ان يرسمها لك ويلقسي بها اليك « (٢) » .

الطبيعة الفنية اذن هي التي تحكمت في ارائه فسي الشعر ، وعلى ضوء ارائه في الشعر كتب دواوينه المتعددة التي تبحث فيها عن المضامين التي شاعت في الشعر العربي في الجيل او الاجيال التي قال فيها الشعر ، فلا تكاد تجد شيئاً منها لان طبيعته الفنية اهتدت الى شيء اخر غير تلك المضامين فكان العقاد اذن شاعرا مجددا بكل معنى الكلمة ، وكان في تجديده خلاقا مبدعا وواضعا لاسس قويمه في الشعر العربي .

وبقدر ما ثار العقاد على المضامين التقليدية مهتديا بالطبيعة الفنية كان محافظا اشد المحافظة ، بل متعصبا اشد التعصب للاساليب القديمة التقليدية ، مهتديا في ذلك ايضا بالطبيعة الفنية نفسها ، فهو من المتعصبين للغة العربية في اللفظ والمبنى ، ومن المتعصبين لعمود الشعر العربي المتمثل في الوزن والقافية ، وقد خاض معارك طاحنة حتى اخر نفس من حياته دفاعا عن الاصول الفنية للشعر العربي . ذلك لان الطبيعة الفنية لا يمكن ان تنصب في غير فن ذي قواعد واصول ، ومتى تخلى فن الشعر عن هذه القواعد دل ذلك على نقص في الطبيعة الفنية لا يقل عن النقص الذي يتمثل في ضحالة نفس لا تمتاز بطبيعة فنية ، وكما ان العقاد لا يمكن ان يسمى النظام الذي لا تمتاز نفسه بطبيعة فنية شاعرا ، وكذلك لا يمكن ان يقر بالشاعرية لنفس لا تنتظم مشاعرها في الاصول والقواعد الفنية .

وكثيرا من قراء العربية لم يرتاحوا لشعر العقاد ، وهم في ذلك اصناف واشتات :

صنف رأى في اسلوب العقاد جفافا وقوة اذا صح ان تطبعا النثر الفكري فلا يصح ان تطبعا الشعر ، وهم يبحثون في اغلب ما نظم العقاد فلا يجدون اللفظ الرنان ولا الكلمة المعسولة ولا الاسلوب السهل الذي تسبق معناه الى الذهن قبل ان يسبق جرسه الى الاذن . وهذه حقيقة لا مجال فيها للممارسة والمكابرة ، فاغلب شعره قوي اللفظ فحل الاسلوب ضخيم التعبير ، وان كان يرق احيانا في شعره الغزلي حتى لتحسب - وانست تقرأه - انك لا تقرأ شعرا للعقاد .

(٢) مقدمة « ديوان العقاد » للمازني .

ولكن هذه القوة والفحولية اتية في الاغلب من طبيعة الشعر العقادي نفسه ومن قوة توليد المعاني عنده ومن الغوص في الجيد منها ، وهي لا تتعارض مع الشعر في شيء لانها لا تخل بالطبيعة الفنية التي هي مزية الشعر الاولى عنده .

ثم ان الشعر عند العقاد ليس اجادة للفظ وتصيد المران منه والبحث عن موسيقاه ، فذلك فيما يعتقد ياتي في المرتبة الثانية بعد تصيد المعنى ، وتوليد الفكرة ، واستقراء الاحساس ، واستفاضة الخيال والتصور ، وابتعاد الاحلام ، وتمثل كل ما في الحياة لان الشعر انما هو ترجمة فنية باطنية للحياة بلفظ دقيق معبر محدود ، والبحث عن غير ذلك او التعلق بغير ذلك انما هو انسياق وراء اجادة كل الناس مدركوها حتى غير الشعراء . وهكذا نجد ان العقاد شاعرا وناقدا لا يمكن ان يعد

من عشاق اللفظ وجمال اللفظ ، ولهذا لم يكن يهيم بشعراء اللفظ اكثر مما يهيم بشعراء الحس والادراك والتصور ورصد منابع الحياة ، فكان الشعراء الاثريون عنده في العربية مثلا : ابن الرومي ، والمعري ، والمتنبي ، والشريف الرضي ، وكلهم ممن غلب مجال الحياة عندهم على اختيار اللفظ . وكان من الاثريين عنده في اللغات الاوروبية : شكسبير وليوباردي وهيني وتوماس هاردي وكلهم من صيادي الفكرة واللمحة والخيال ، والمهتمين بالتعبير الدقيق واللفظ الدال .

ولهذا فالذين يقرأون العقاد وهم يحسبون انهم سيجدون عنده لغة شوقي او الفاظ علي محمود طه ، من الافضل لهم ان يرتعدوا عن العقاد فما كان شعره موجها لهؤلاء ، وانما كان موجها الى الذين يحيون حياتهم بقلب يقظ وشعور مرهف واحساس عميق .

وصنف اخر ممن لا يرتاحون لشعر العقاد ، واحسبني من هذا الصنف حينما لا ارتاح لبعض قصائده وخاصة في ديوانه الاول « ديوان العقاد » هذا الصنف لا يرتاح للفلسفة العميقة التي تكاد تطفئ على نصيب الشعر في بعض القصائد فتفقد نصيب الخيال والتصور والدلالة الفنية لتجعل منه فكرة مجردة سبيل اثباتها قوة المنطق والحجة والنظرية .

وقد شاعت الفلسفة في شعر العقاد حتى في شعره

- التتمة على الصفحة ٧٣ -

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احداث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة

الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

العقاد . . . شاعرا

- تنمة المنشور على الصفحة ١٥ -

الوصفي والغزلي واقرأوا معي هذه القطعة التي لم يكن اختياري لها الا صدفة واعتباطا فقد فتحت ديوان العقاد وقرأت عن (زهرة القرنفل) .

تعثقت من زهر القرنفل لونه ونشرا كريش البابية زاكيا
تقسم نور الشمس احمر قانيا واصفر وضاحا واخضر زاهايا
وتنازع محزون البنفسج لونه وحالك له ثوبا من الجو صافيا
كواعب اتراب تقاربسن صورة وسيمة حسن واختلفن كواسيا
واسمع منه حين اقبس ضواه وانشق رياه فانصت واعيا :
تشاغل بما يجلو العيون فلن ترى سرائر دنيانا وان كنت رائيسا
وسيان تحديق العيون وغمضها اذا كان ما ترتاده العين خافيا
فحسبك منه زينة تبهز النهى فغير قليل ما ترى النفس باديا
وما من شك في ان الفلسفة تطفى طفيانا كبيرا في
شعره التأمل في اسرار الحياة والناس .

ولكن العقاد مع ذلك استطاع ان يمزج التأملات الفلسفية بتوليد المعاني الادبية ، فكانت له قصائد رائعات عمقت في الفلسفة ، ولكنك لا تلبث وانت تقرأها ان تؤمن بانها شعر رائع . واقرأوا معي هذه النماذج من قصيدته الرائعة عن « الموسيقى » التي يقارن فيها بين الفلسفة العالية والموسيقى باعتبارهما معا مترجمان للانسان عن وحي البدهاة ولغة الحياة في ضمائرنا العميقة .
قال العقاد في قصيدة « الموسيقى » :

معلمة الانسان ما ليس يعلم وقائلة ما لا يوح به الفم
وكامنة بين النفوس بداهة وما علمت في مهدها ما التكلم
ومخرجة الاوهام من ظلماتها على انها من سطوة النور تحجم
ومسمة الانسان اشجان نفسه فيطره ترجيعها وهي تؤلم
اعيدي علي القول انصت واستمع حديثا يناغيني واذكر انني
واوغل بالذكري فازعم انه قديم كعهد القلب او هو اقدم
ويا ليتني ادري انفس سحيقة تنادين منها ام فؤادي الكلم
كان لنا نفسين نفس قريبة واخرى على بعد الزار تسلم
اعيدي على الصوت انظر لعلي ارى في ثنايا اللحن ما يتوسم
الا حديثنا عن اله نجبه ونعبده جبا ولا نتائس
فما كان للوحي الالهى مسلك الى القلب اشجي من هداكواكرم
حديثك من كل اللغات منظم ومعناك في كل النفوس مقسم
تهزين اعطاف البخل فيكرم ويصفى اليك المشخر فيرحم
ويسمك الواهي الجبان فيثنى الى الحرب شيطاناعلى الموت يهجم
ويمنحك الشيخ الجليل وقساره وقارا شراه بالصبا وهو قيم
وتسلمك الابدان عفو حراهما كما انقادت الاغصان والريح تنسم
ويسعد منك الوالهيون بلبس الاب جرح لا يداويه بلبس
افيضي على قلبي السكينة واسكبي عليه رضى، اني على العيش انقم

أرأيت كيف كانت المقارنة بين المعرفة والموسيقى سهلة ميسرة كأنها حديث شعر لا فلسفة فيه ولا غموض ، وحظ الشعر فيها اقوى من حظ الفلسفة ؟
وسر هذا الانغمار الفلسفي - فيما اعتقد - يعود الى نظرة العقاد الى الشعر اولا ، ثم السى ثقافته العالية

التي تمكنه من التقاء الافكار في نفسه السامية فلا يفترق فيها الشعر عن الفلسفة ، بل أنهما ليمتزجان حتى تصبح الفلسفة شعرا والشعر فلسفة .

ولعل صنفا اخر من الناس لا يرتاح لشعر العقاد لانه يعتبره متخلفا عن زمانه او الزمان الاخير الذي عاشه، وبذلك لم يكن له شعر ملتزم نحو الحياة الجديدة التي عاشها الشعب المصري او الشعب العربي منذ نهاية الحرب العالمية الاخرة حتى وفاته ، وهذا ان كان من وجهة نظر الملتزمين الجدد صحيحا عمليا ، فقد لا يكون عند العقاد صحيحا ابدا ، اذ هو لا يقبل مطلقا ان يكون مقلدا حتى في التجديد واذا كان قد عاب على بعض نقاده ان يعتبروا حديثه عن الصحراء تقليدا باعتبار الصحراء مظهرا موحيا من مظاهر الحياة اذا اوحت لشعراء الجاهلية ولم توح للعقاد فسيكون بالطبيعة الفنية عند العقاد خلل لا يرتضيه لنفسه ، اذا كان قد عاب على بعض نقاده هذا ، فهو جدير بان يعيب على الذين لا يرتاحون لشعر ليس فيسه الترام يرتضيه الناقدون ، لان العقاد يستمد شعره من طبيعته الفنية ومن الجائز الا توحى اليه هذه الطبيعة بما يعتبره الناقدون شعرا ملتزما .

على ان شعر العقاد طافح بالقصائد الوطنية التي قالها اثناء وبعد ثورة مصر الاولى حيا بها سعد زغلول باعتباره رائد الكفاح الوطني وحيا بهسا شهداء الثورة ، وقصائد وجه فيها نقدا لاذعا لشباب مصر وحل فيهما ظاهرة اجتماعية خطيرة كانت تنخر عصب الحياة في المجتمع المصري وهم الشباب .

اعتقد ان العقاد - وقد تخلى عن الشعر منذ نشر ديوانه الاخير بعد الاعاصير - جدير بان ينظر السى شعره باعتباره شعر فترة لم تعم فيها المذاهب الالتزامية الحديثة، وان كنت أومن بانه لا يرضى عن هذا التعليل حيا وميتا .
وبعد : فاذا كان العقاد قد اغنى الشعر العربي بانتاجه الضخم ، فانه اكثر من ذلك وجه الشعر العربي ليكون تعبيرا عن الحياة بكل آفاقها ، وجهه نشرا فيما كتب من كتب وابحاث نقدية ، ووجهه شعرا فيما اعطى من مثل كانت وما تزال من غرر الشعر العربي في القديم والحديث .

الرباط (المغرب) عبد الكريم غلاب

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب